مكارم الأخلاق

بقلم فضيلة الشيخ
محمد بن صالح بن عثيمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ ـ ٥٤٤٦٤٩٦


بسم الله
الرحمن
الرحيم

رقم الإيداع ١٨٨٨١ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى

977-331-062-0

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ ـ ٥٤٤٦٤٩٦

تقـــديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾[الأحزاب : ٧٠ : ٧١] .

أما بعد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وبعد : فإنه ما من شريعة سماوية إلا وحثّت على التخلق بالخلق الفاضل القويم، وحذرت من التخلق بمساوئ الأخلاق ورذائل

الصفات . وما من كتاب نزل من عند الله إلا وأرشد إلى حسن الخلق . وما من رسول أرسله الله تعالى إلا ودعا إلى ملازمة محاسن الأخلاق وكرائم الخصال والفعال .

ولقد حظيت الشريعة الإسلامية من ذلك بأوفر الحظّ والنصيب ، فحثَّ القرآن الكريم على حسن الخلق في كثير من آياته ، وبين الرسول الكريم ﷺ أن الخلق الحسن من أثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة ، وأن أهل الخلق الحسن هم أقرب الناس منه ﷺ منزلة يوم القيامة .

وكما كان النبي ﷺ يدعو الناس بلسان مقاله ، فإنه أيضًا كان يدعوهم بأخلاقه وكريم فعاله ، فليس الإسلام نصوصًا تحفظ فحسب ، وليس الالتزام مجرد دعوى يدعيها كلُّ أحدٍ لا رصيد لها في واقع الحياة .

فالدعاوى مالم يقيموا عليها
بيناتٍ أصحابُها أدعياءُ

وإنما الإسلام منهاج حياة يجب أن يشمل جوانب الحياة كلها : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣] .

ولأهمية هذا الموضوع جاءت هذه الرسالة !

جاءت لتحث المسلمين على العودة إلى أخلاق النبوة وسلفهم الصالح . جاءت لتبين عظمة الإسلام وكماله وشمولية أحكامه

وتشريعاته . جاءت حرصًا من فضيلة شيخنا الفاضل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ حفظه الله ونفع بعلمه ـ على توجيه شباب الإسلام للتمسك بما جاء في كتاب الله تعالى ، وبما صح من سنة رسوله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، الذين هم خير القرون من التحلي بمكارم الأخلاق ، من صدق ، وتواضع ، ورحمة ، وشفقة ، وعفة ، وإحسان ، وبرّ ، ومن التخلي عن مساوئ الأخلاق ، من كذب ، وغيبة ونميمة ، وحقد ، وحسد ، وعداوة وبغضاء .

فشكر الله له صنيعه ، وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ونفع الله بهذا الكتاب ، وجعله في موازين أعمالنا .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه / راجي عفو ربه الغفور

أبو صالح خالد بن مصطفى سالم

حامدًا الله تعالى ، ومصليًا على نبينا محمد ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كلّه ، بعثه الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فبلّغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، ووفق الله من شاء من عباده فاستجاب لدعوته ، واهتدى بهديه ، وخذل الله بحكمته من شاء من عباده ، فاستكبر عن طاعته ، وكذّب خبره ، وعاند أمره ، فباء بالخسران والضلال البعيد .

أما بعد : فبحثنا هذا يدور حول الحديث عن حسن الخلق ومكارم الأخلاق .

والخلقُ : هو السَّجِيَّةُ والطبع (١) ، وهو كما يقول أهلُ العلم : صورةُ الإنسان الباطنة ، لأنَّ للإنسان صورتين (٢) :

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٧٠) الخُلق بضم اللام وسكونها : الدين والطبع والسجية . وحقيقته : أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافه .

(٢) قال القسطلاني : اعلم أن الأخلاق جمع خُلُق ، بضم الخاء واللام ، ويجوز إسكانها [خُلْق] . قال الراغب : الخَلق والخُلُق بالفتح وبالضم في الأصل بمعنى واحد ، كالشَّربُ والشُّرب ، ولكن خُصَّ الخَلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر . وخصَّ الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة . أهـ . شرح المواهب اللدنية (٤/ ٢٤٣) .

صورة ظاهرة : وهي شكل خلْقَته التي جعل الله البدن عليه ، وهذه الصورة الظاهرة منها ماهو جميل حسن ، ومنها ماهو قبيح سيّئ ، ومنها مابين ذلك .

وصورة باطنة : وهي حالٌ للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر ، من غير حاجة إلى فكرٍ ورويّة .

وهذه الصورة أيضًا منها ماهو حسن إذا كان الصادرُ عنها خلقًا حسنًا ، ومنها ماهو قبيح إذا كان الصادر عنها خلقًا سيئًا ، وهذا ما يُعبّر عنه بالخُلُق ، فالخلق إذن هو الصورة الباطنة التي طبع الإنسان عليها .

والواجب على المسلم أن يتخلق بمكارم الأخلاق أي أطايبها ، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء ، ومنه قول الرسول ﷺ لمعاذ : « **إياك وكرائم أموالهم** »[(١)] حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن .

فعلى الإنسان أن تكون سريرته كريمة ، فيحبُّ الكرم والشجاعة والحلم والصبر ، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة ، فكل هذه الخصال من مكارم الأخلاق .

وقد قال النبي ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** »[(٢)] فينبغي أن يكون هذا الحديث دائمًا نصب عين المؤمن ، لأن الإنسان إذا علم بأنه لن يكون كامل الإيمان إلا إذا أحسن خلقه كان ذلك دافعًا له على التخلق بمكارم الأخلاق ومعالي الصفات وترك سفسافها ورديئها .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٤٩٦) كتاب الزكاة . ومسلم رقم (٢٩) كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٨٢) كتاب السنة . والترمذي رقم (١١٦٢) كتاب الرضاع وفيه زيادة : « وخياركم خياركم لنسائهم » وأحمد في المسند (٢/ ٤٧٢) وهو في صحيح الجامع رقم (١٢٣٠ ، ١٢٣٢) .

كمال الشريعة الإسلامية من ناحية الأخلاق

والنبي ﷺ أخبر أن من مقاصد بعثته إتمام محاسن الأخلاق ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** »(١) .

فالشرائع السابقة التي شرعها الله للعباد كلها تحثّ على الأخلاق الفاضلة ، ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما أطبقت الشرائع على طلبه . ولكن هذه الشريعة الكاملة جاء النبي عليه الصلاة والسلام فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال . ولنضرب لذلك مثلاً :

مسألة : القصاص :

ذكر أهل العلم في مسألة القصاص ، أي لو أن أحدًا جنى على أحد فهل يقتصُّ منه أم لا ؟ ذكروا أن القصاص في شريعة اليهود حتميٌّ ولا بد منه ، ولا خيار للمجني عليهم فيه . وأن الأمر في شريعة النصارى بالعكس وهو وجوب العفو ، لكن شريعتنا جاءت كاملة من الوجهين ، ففيها القصاصُ وفيها العفو ، لأن في أخذ الجاني بجنايته حزمًا وكفّاً للشرّ ، وفي العفو عنه إحسانًا وجميلاً وبذل معروف فيمن عفوت عنه ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٨١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي . والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٣) . والبيهقي (١٠/ ١٩٢) وابن أبي الدنيا في : مكارم الأخلاق رقم (١٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٥) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح وصححه أيضًا : الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٥) .

فجاءت شريعتنا والحمد لله مكمِّلة ، خَيرت من له الحق بين العفو والأخذ ، لأجل أن يعفو في مقام العفو ، وأن يأخذ في مقام الأخذ . وهذا بلاشك أفضل من شريعة اليهود التي ضيعت حقَّ المجني عليهم في العفو الذي قد يكون فيه مصلحة لهم ، وأفضل من شريعة النصارى التي ضيعت حق المجني عليهم أيضًا ، فأوجبت عليهم العفو وقد تكون المصلحة في الأخذ وإنزال العقوبة .

الأخلاق بين الطبع والتطبع

وكما يكون الخُلقُ طبيعة ، فإنه قد يكون كسبًا ، بمعنى أن الإنسان كما يكون مطبوعًا على الخلق الحسن الجميل ، فإنه أيضًا يمكن أن يتخلق بالأخلاق الحسنة عن طريق الكسب والمرونة .

ولذلك قال النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس : « **إن فيك لخُلُقين يحبهما الله : الحلم والأناة** » قال يا رسول الله أهما خلقان تخلّقتُ بهما ، أم جَبلني الله عليها . قال : « **بل جَبَلك الله عليهما** » . فقال : الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله ورسوله »[1] .

فهذا دليل على أن الأخلاق الحميدة الفاضلة تكون طبعًا وتكون تطبُّعًا ، ولكن الطبع ـ بلا شك ـ أحسنُ من التطبع ، لأن الخلق الحسن إذا كان طبيعيًا صار سجيّة للإنسان وطبيعة له ، لا يحتاج في ممارسته إلى تكلف ، ولا يحتاج في استدعائه إلى عناء ومشقة . ولكن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومن حُرم هذا ـ أي من حُرم الخُلُق عن سبيل الطبع ـ فإنه يمكنه أن يناله عن سبيل التطبع ، وذلك بالمرونة والممارسة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فيما بعد .

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٢٢٥) كتاب الأدب . وأحمد (٤/ ٢٠٦) وأخرج مسلم شطره الأول رقم (٢٥ ، ٢٦) كتاب الإيمان . والترمذي رقم (٢٠١١) كتاب البر والصلة .

من الأفضل ؟

وهنا مسألة وهي :

أيهما أفضل ؛ رجل جُبل على خلق حميد ، ورجل يجاهد نفسه على التخلق به فأيهما أعلى منزلة من الآخر ؟ ونقول جوابًا على هذه المسألة : إنه لاشك أن الرجل الذي جُبل على الخلق الحسن أكمل من حيث تخلُّقه بذلك ، أو من حيث وجود هذا الخلق الحسن فيه ، لأنه لا يحتاج إلى عناء ولا إلى مشقة في استدعائه ، ولا يفوته في بعض الأماكن والمواطن ، إذ أن حسن الخلق فيه سجية وطبع ، ففي أي وقت تلقاه تجده حَسَن الخلق ، وفي أي مكان تلقاه تجده حَسَن الخلق ، وعلى أي حال تلقاه تجده حَسَن الخلق ، فهو من هذه الناحية أكمل بلاشك .

وأما الآخر الذي يجاهد نفسه ويروضها على حسن الخلق ، فلا شك أنه يؤجر على ذلك من جهة مجاهدة نفسه وهو أفضل من هذه الجهة ، لكنه من حيث كمالُ الخلق أنقص بكثير من الرجل الأول .

فإذا رزق الإنسان الخلقين جميعًا ، طبعًا وتطبعًا ، كان ذلك أكمل ، والأقسام أربعة :

١ ـ من حُرم حسن الخلق طبعًا وتطبعًا .

٢ ـ من حُرمه طبعًا لا تطبعًا .

٣ ـ من رُزقه طبعًا وتطبعًا .

٤ ـ من رُزقه طبعًا لا تطبعًا .

ولاشك أن القسم الثالث هو أفضل الأقسام ، لأنه جمع بين الطبع والتطبع في حسن الخلق [١] .

---

(١) ويرى ابن القيم رحمه الله أن جميع الأخلاق الفاضلة تنشأ عن أمرين :

الأول : الخشوع .

الثاني : علوّ الهمة .

قال رحمه الله في كتاب الفوائد ص (٢١٠ ، ٢١١) : « وأما الأخلاق الفاضلة ، كالصبر ، والشجاعة ، والعدل ، والمروءة ، والعفة ، والصيانة ، والجود ، والحلم ، والعفو ، والصفح ، والاحتمال ، والإيثار ، وعزة النفس عن الدناءات ، والتواضع ، والقناعة ، والصدق ، والإخلاص ، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل ، والتغافل عن زلات الناس ، وترك الاشتغال بما لا يعنيه ، ولامةُ القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك ، فكلّها ناشئة عن الخشوع وعلوّ الهمة . والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ، ثم ينزل عليها الماء فتهتز ، وتأخذ زينتها وبهجتها ، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق . أ . هـ .

مجالات حسن الخلق

إن كثيرًا من الناس يذهب فهمه إلى أن حسن الخلق خاص بمعاملة الخلق دون معاملة الخالق ولكن هذا الفهم قاصر ، فإن حسن الخلق كما يكون فى معاملة الخلق ، يكون أيضًا في معاملة الخالق ، فموضوع حسن الخلق إذن : معاملة الخالق جل وعلا ، ومعاملة الخلق أيضا وهذه المسألة ينبغي أن يتنبه لها الجميع .

* * *

أولاً : حسن الخلق في معاملة الخالق :

حسنُ الخلقِ في معاملةِ الخالقِ يجمع ثلاثة أمور :

١ ـ تلقي أخبار الله بالتصديق .

٢ ـ وتلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق .

٣ ـ وتلقي أقداره بالصبر والرضا .

هذه ثلاثة أشياء عليها مدار حسن الخلق مع الله تعالى .

أولاً : تلقي أخباره بالتصديق ، بحيث لا يقع عند الإنسان شك أو تردد في تصديق خبر الله تبارك وتعالى ، لأن خبر الله تعالى صادر عن علم وهو سبحانه أصدق القائلين ، كما قال الله تعالى عن نفسه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (١) . ولازم تصديق أخبار الله أن يكون الإنسان

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٧ .

واثقاً بها، مدافعاً عنها ، مجاهداً بها وفي سبيلها ، بحيث لا يداخله شك أو شبهة في أخبار الله عز وجل وأخبار رسوله ﷺ .

وإذا تخلق العبد بهذا الخلق أمكنه أن يدفع أي شبهة يوردها المغرضون علي أخبار الله ورسوله ﷺ ، سواء أكانوا من المسلمين الذين ابتدعوا في دين الله ماليس منه ، أم كانوا من غير المسلمين ، الذين يلقون الشُّبه في قلوب المسلمين بقصد فتنتهم وإضلالهم .

* * *

ولنضرب لذلك مثلاً [**حديث الذباب**] :

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمِسْه ثم ليطرحْهُ ، فإن في أحد جَنَاحَيْه داء وفي الآخر شفاء** »(١) .

هذا خبر صادر عن رسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في أمور الغيب لا ينطق عن الهوى ، لا ينطق إلا بما أوحى الله تعالى إليه ، لأنه بشر ، والبشر لا يعلم الغيب ، بل قد قال الله له : ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾(٢) .

هذا الخبر يجب علينا أن نقابله بحسن الخلق ، وحسن الخلق نحو هذا الخبر يكون بأن نتلقاه بالقبول والانقياد ، فنجزم بأن ما قاله النبي ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٧٨٢) كتاب الطب . وأبو داود بنحوه رقم (٣٨٤٤) كتاب الأطعمة . وأخرجه ابن ماجه رقم (٣٥٠٥) كتاب الطب . وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٠ .

هذا الحديث فهو حق وصدق وإن اعترض عليه من اعترض ، ونعلم علم اليقين أن كل ما خالف ما صح عن رسول الله ﷺ فإنه باطل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ فذلكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحقُّ فماذا بَعْد الْحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ فأنَّى تُصرْفُونَ ﴾ (١) .

* * *

ومثال آخر [**من أخبار يوم القيامة**] :

أخبر النبي ﷺ « **أن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بقدر ميل** » (٢) . وسواءٌ كان هذا الميلُ ميلَ المكْحَلة ، أم كان ميل المسافة ، فإن هذه المسافة بين الشمس ورؤوس الخلائق قليلة ، ومع هذا فإن الناس لا يحترقون بحرها ، مع أن الشمس لو تدنو الآن في الدنيا مقدار أنملة لاحترقت الأرض ومن عليها .

قد يقول قائل : كيف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة بهذه المسافة ، ثم يبقى الناسُ لحظةً واحدةً دون أن يحترقوا ؟! نقول لهذا القائل : عليك أن تكون حسنَ الخلق نحو هذا الحديث .

وحسنُ الخلق نحو هذا الحديث الصحيح يكون بأن نقبله ونصدق به ، وأن لا يكون في صدورنا حرج منه ولا ضيق ولا تردد ، وأن نعلم أن ما أخبر به النبي ﷺ في هذا فهو حقّ ، ولكنَّ هناك فارقًا عظيمًا بين أحوال الناس في الدنيا وأحوالهم في الآخرة ، بحيث لا يمكن أن نقيس أحوالَ

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٢ .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٦٢) كتاب الجنة ونعيمها . والترمذي رقم (٢٤٢١) كتاب الزهد .

الدنيا بأحوالِ الآخرة ، لوجود هذا الفارق العظيم .

فنحن نعلم أن الناس يقفون يوم القيامة خمسين ألف سنة ! ! وعلى مقياس ما في الدنيا ، فهل يمكن أن يقف أحدٌ من الناس خمسين ألف ساعة ؟ بل هل يمكن أن يقف أحد من الناس خمسين ألف دقيقة ؟ **الجواب:** لا يمكن ذلك ، إذن فالفارق عظيم ، فإذا كان كذلك ، فإن المؤمن يقبل مثل هذا الخبر بانشراح صدر وطمأنينة ، ويتسع فهمه له ، وينفتح قلبه لما دلّ عليه .

ثانيًا : ومن حسن الخلق مع الله عز وجل أن يتلقى الإنسانُ أحكام الله بالقبول والتنفيذ والتطبيق ، فلا يردّ شيئاً من أحكام الله ، فإذا ردَّ شيئاً من أحكام الله فهذا سوء خلق مع الله عز وجل ، سواءٌ ردّها منكراً حكمها ، أو ردّها مستكبرًا عن العمل بها ، أو ردّها متهاونًا بالعمل بها ، فإن ذلك كله منافٍ لحسن الخلق مع الله عز وجل .

* * *

مثال على ذلك : [**الصوم**]

الصوم لاشكّ أنه شاقٌ على النفوس ، لأن الإنسان يترك فيه المألوف ، من طعام ، وشرابٍ ونكاح ، وهذا أمر شاق على الإنسان ، ولكن المؤمن حسن الخلق مع الله عز وجل ، يقبل هذا التكليفَ ، أو بعبارة أخرى : يقبل هذا التشريف ، فهذه نعمة من الله عز وجل في الحقيقة ، فالمؤمن يقبل هذه النعمة التي في صورة تكليف بانشراح صدر وطمأنينة ، وتتسع لها نفسه ، فتجده يصوم الأيام الطويلة في زمن الحرّ

الشديد ، وهو بذلك راض منشرح الصدر . لأنه يحسن الخُلُق مع ربه . لكن سيِّيء الخلق مع الله يقابل مثل هذه العبادة بالضّجر والكراهية ، ولولا أنه يخشى من أمر لاتُحمد عقباه ، لكان لايلتزم بالصيام .

مثال آخر : [**الصلاة**]

فالصلاة لاشك أنها ثقيلة علي بعض الناس ، وهي ثقيلة على المنافقين ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء وصلاة الفجر** »[١] .

لكن الصلاة بالنسبة للمؤمن ليست ثقيلة ، قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾[٢] . فهي على هؤلاء غير كبيرة وإنما سهلة يسيرة ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **وجعلت قُرَّة عيني في الصلاة** »[٣] .

فالصلاة هي قرة عين المؤمن ، وزاده اليومي الذي يتزوّد به للقاء الله تعالى ، ولذلك فهو يعظم قدرها ويهتم لها أعظم الاهتمام ، لأنها عماد

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٤) كتاب الأذان . ومسلم رقم (٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣) كتاب المساجد . والترمذي رقم (٢١٧) في أبواب الصلاة . وأبو داود رقم (٥٤٨) كتاب الصلاة . والنسائي رقم (٨٤٨) كتاب القبلة . وابن ماجة رقم (٧٩١) كتاب المساجد .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) أخرجه النسائي رقم (٣٩٤٩ ، ٣٩٥٠) كتاب عشرة النساء . وأحمد في المسند (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) وهو في صحيح الجامع رقم (٣١٣٤) .

الدين وأول ما يحاسَب عليه العبد يوم القيامة .

فحسن الخلق مع الله عز وجل بالنسبة للصلاة أن تؤديها وقلبك منشرح مطمئن ، وعينك قريرة ، تفرح إذا كنت متلبساً بها ، وتنتظرها إذا فات وقتها ، فإذا صليت الظهر ، كنت في شوق إلى صلاة العصر ، وإذا صليت العصر ، كنت في شوق إلي صلاة المغرب ، إذا صليت المغرب ، كنت في شوق إلى صلاة العشاء ، وإذا صليت العشاء كنت في شوق إلى صلاة الفجر . ولهذا كان النبي ﷺ يقول لبلال : « **يا بلال أرحنا بالصلاة** »[1] يقول : أرحنا بها ، فإن فيها الراحة والطمأنينة والسكينة ، لا كما يقول البعض : أرحنا منها ، لأنها ثقيلة عليهم ، وشاقة على نفوسهم .

وهكذا دائمًا تجعل قلبك معلقًا بهذه الصلوات فهذا لاشك أنه من حسن الخلق مع الله تعالى .

* * *

مثال ثالث : [تحريم الربا]

وهذا في المعاملات ، فقد حرَّم الله علينا الربا تحريمًا أكيدًا ، وأحل لنا البيع ، وقال في ذلك : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٩٨٥) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٥/ ٣٦٤) من طريق مسعر بن كدام ، عن عمرو بن مرَّة عن سالم بن الجعد ، عن رجل من أسلم عن النبي ﷺ . والإسناد صحيح وجهالة الصحابيِّ لا تضرّ . والحديث في صحيح الجامع للألباني رقم (٧٨٩٢) .

وحرّم الرّبا فمن جاءهُ موْعظةٌ مّن رّبّه فانتهىٰ فلهُ ما سلف وأمْرُهُ إلى اللّه ومنْ عاد فأُولٰئك أصْحابُ النّار هُمْ فيها خالدُون ﴾ (١) . فتوعد من عاد إلى الربا بعد أن جاءته الموعظة وعلم الحكم ، توعده بالخلود في النار والعياذ بالله .
بل إنه توعده في الدنيا أيضًا بالحرب فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا اتّقُوا اللّه وذرُوا ما بقي من الرّبا إن كُنتُم مُّؤْمنين (٢٧٨) فإن لّمْ تفْعلُوا فأْذنُوا بحرْبٍ مّن اللّه ورسُوله ﴾ (٢) . هذا يدل على عظم هذه الجريمة وأنها من كبائر الذنوب والموبقات .

فالمؤمن يقبل هذا الحكم بانشراح ورضا وتسليم ، وأما غير المؤمن فإنه لايقبله ، ويضيق صدره به ، وربما يتحيَّل عليه بأنواع الحيل ، لأننا نعلم أن في الربا كسباً متيقناً وليس فيه أي مخاطرة ، لكنه في الحقيقة كسب لشخص وظلم لآخر ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وإن تُبْتُمْ فلكُمْ رُءُوسُ أمْوالكُمْ لا تظْلمُون ولا تُظْلمُون ﴾ (٢) .

ثالثاً: ومن حسن الخلق مع الله تعالى: تلقي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر.

وكلنا يعلم أن أقدار الله عز وجل التي يجريها على خلقه ليست كلها ملائمة للخلق بمعنى أن منها مايوافق رغبات الخلق ومنها مالا يوافقهم .

فالمرض مثلاً لا يلائم الإنسان ، فكل إنسان يحب أن يكون صحيحًا مُعافى .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٩ .

وكذلك **الفقر** لايلائم الإنسان ، فالإنسان يحبُّ أن يكون غنياً وكذلك الجهل لايلائم الإنسان ، فالإنسان يحب أن يكون عالماً ، لكن أقدار الله عز وجل تتنوع لحكمة يعلمها الله عز وجلَّ ، منها ما يلائم الإنسان ويستريح له بمقتضى طبيعته . ومنها ما لا يكون كذلك . فما هو حسن الخلق مع الله عز وجل نحو أقدار الله ؟

حسن الخلق مع الله نحو أقداره : أن ترضى بما قدّر الله لك ، وأن تطمئن إليه وأن تعلم أنه سبحانه وتعالى ما قدّره إلا لحكمة عظيمة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد والشكر .

وعلى هذا فإن حسن الخلق مع الله نحو أقداره هو أن يرضى الإنسان ويستسلم ويطمئن . ولهذا امتدح الله الصابرين فقال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

* * *

ثانيًا : حسن الخُلق في معاملة الخَلق :

أما حسن الخلق مع المخلوق فعرَّفه بعضُهم بأنه كفُّ الأذى ، وبذلُ الندى ، وطلاقةُ الوجه . ويذكر ذلك عن الحسن البصري رحمه الله (٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦ .

(٢) انظر الآداب الشرعية (٢/ ٢١٦) . وهناك تعريفات أخرى لحسن الخلق منها : تعريف الواسطي قال : هو أن لا يُخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقيل : هو التخلي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل . وقيل : هو بذل الجميل وكفّ القبيح . وسئل سهل عنه فقال : أدناه الاحتمال ، وترك المكافأة ، والرحمة للظالم ، والاستغفار له ، والشفقة عليه . راجع في ذلك : مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٩٤) ، الإحياء لأبي حامد الغزالي (٣/ ٥٣) ، الآداب الشرعية (٢/ ٢١٦) .

أولاً : معنى كفّ الأذى :

معنى كفّ الأذى أن يكف الإنسان أذاه عن غيره سواء كان هذا الأذى بالمال ، أو يتعلق بالنفس ، أو يتعلق بالعرض ، فمن لم يكف أذاه عن الخلق فليس بحسن الخلق ، بل هو سيّيء الخلق .

وقد أعلن الرسول ﷺ حُرْمة أذية المسلم بأى نوع من الإيذاء وذلك في أعظم مجمع اجتمع فيه بأمته حيث قال : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا** »[1] .

إذا كان رجل يعتدي على الناس بأخذ المال ، أو يعتدي على الناس بالغشّ ، أو يعتدي على الناس بالخيانة ، أو يعتدي على الناس بالضرب والجناية ، أو يعتدي على الناس بالسبِّ والغيبة والنميمة ، لا يكون هذا حسنَ الخلق مع الناس ، لأنه لم يكفّ أذاه ، ويعظم إثم ذلك كلما كان موجهًا إلى من له حقّ عليك أكبر .

فالإساءة إلى الوالدين مثلاً أعظم من الإساءة إلى غيرها ، والإساءة إلى الأقارب أعظم من الإساءة إلى الأباعد ، والإساءة إلى الجيران أعظم من الإساءة إلى من ليسوا جيرانًا لك . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **والله لا يؤمن ، والله يؤمن ، والله لا يؤمن** » قالوا : من يارسول الله ؟ قال : « **من لايامن جاره بوائقه** »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٧) كتاب العلم . ورقم (١٧٤١) كتاب الحج . ورقم (٤٤٠٦) كتاب المغازي . وأخرجه مسلم رقم (٢٩ ، ٣٠) كتاب القسامة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٦) كتاب الأدب . واللفظ له . ومسلم بنحوه رقم (٧٣)

ثانيًا : معنى بذلك الندي :

الندى هو الكرم والجود ، يعنى أن تبذل الكرم والجود . والكرم ليس كما يظنه بعض الناس أنه بذل المال فقط ، بل الكرم يكون في بذل النفس ، وفي بذل الجاه ، وفي بذل المال ، وفي بذل العلم .

إذا رأينا شخصًا يقضي حوائج الناس ، يساعدهم ، يتوجه في شؤونهم إلى من لا يستطيعون الوصول إليهم ، ينشر علمه بين الناس ، يبذل ماله بين الناس ، هل نَصفُ هذا بحسن الخلق ؟ نعم نصفه بحسن الخلق ، لأنه بذل الندى ، ولهذا قال النبي ﷺ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن** »(١) .

ومن مخالقة الناس بخلق حسن : أنك إذا ظُلمت أو أسيء إليك ، فإنك تعفو وتصفح ، وقد امتدح الله العافين عن الناس ، فقال في أهل الجنة : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾(٣) .

= كتاب الإيمان ولفظه : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » قال النووي : البوائق : جمع بائقة وهي الغائلة والداهية والفتك . انظر مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠٧) .

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٩٨٧) كتاب البر والصلة . وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد في المسند (٤/ ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٢٣٦) من حديث أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما . وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٩٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) .

وكل إنسان يتصل بالناس ، فلا بد أن يجد من الناس شيئاً من الإساءة ، فموقفه من هذه الإساءة أن يعفو ويصفح ، وليعلمْ علم اليقين أنه بعفوه وصفحه ومجازاته بالحسنى ، سوف تنقلب العداوة بينه وبين أخيه إلى ولايه ومحبة وصداقة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وتأملوا أيها العارفون باللغة العربية كيف جاءت النتيجة بإذا الفُجائية ، لأن « إذا » الفجائية تدل على الحدوث الفورى في نتيجتها ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . ، ولكن ليس كل أحد يوفق لذلك قال : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٤) .

هل نفهم من هذا أن العفو عن الجاني محمود مطلقاً ومأمور به ؟ قد يفهم البعض من الآية هذا الكلام ، ولكن ليكن معلومًا أن العفو إنما يُحمد إذا كان العفو أحمد ، فإن كان الأخذُ أحمد فالأخذ أفضل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا

---

(١) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .

(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٥ .

يُحبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) . فجعل العفو مقرونًا بالإصلاح .

فالعفو قد يمكن أن يكون غير إصلاح ، فقد يكون هذا الذي جنى عليك واجترأ عليك رجلاً شريراً معروفاً بالشر والفساد ، فلو عفوت عنه لتمادى في شره وفساده فالأفضل في هذا المقام أن تأخذ هذا الرجل بجريرته ، لأن في ذلك إصلاحاً . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الإصلاح واجب ، والعفو مندوب ، فإذا كان في العفو فوات الإصلاح فمعنى ذلك أننا قدمنا مندوباً على واجب ، وهذا لا تأتي به الشريعة . وصدق رحمه الله .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

تنبيه مهم

وإنني بهذه المناسبة أودُّ أن أنبه على مسألة يفعلها كثير من الناس بقصد الإحسان ، وهي أن تقع حادثة من شخص ، فيهلك بسببها شخص آخر ، فيأتي أولياء المقتول فيسقطون الدية عن هذا الجاني الذي فعل الحادث ، فهل إسقاطهم للدية محمود ويعتبر من حسن الخلق ؟ أم في ذلك تفصيل ؟

في ذلك تفصيل ، فلابد أن نتأمل ونفكر في حال هذا الجاني الذي وقع منه الحادث ، هل هو من الناس المعروفين بالتهور وعدم المبالاة ؟ هل هو من الطراز الذي يقول : أنا لا أبالي أن أدهس شخصًا لأن ديته في الدرج والعياذ بالله .

أم أنه رجل حصلت منه هذه الحادثة مع كمال التعقل وكمال الاتزان، ولكن الله تعالى قد جعل لكل شيء مقداراً .

إن كان من هذا الطراز الأخير فالعفو في حقه أولى ، ولكن حتى وإن كان من هذا الطراز المتعقل المتزن ، يجب قبل أن نعفو عنه أن ننظر : هل على الميت دين ؟ فإذا كان علي الميت دين ، فإنه لايمكن أن نعفو ، ولو عَفَوْنَا فإن عفونا لا يعتبر . وهذه مسألة ربما يغفلُ عنها كثير من الناس ، ونحن نقول ذلك لأن الورثة يتلقون الاستحقاق لهذه الدية من الميت الذي أصيب بالحادث ، ولا يردُ استحقاقهم إلا بعد قضاء الدين إن كان الميت مدينًا .

ولهذا لما ذكر الله الميراث قال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾(١).

والحاصل أن من حسن الخلق : العفو عن الناس وهذا من باب بذل الندي، لأن بذل الندي، إما إعطاء وإما إسقاط، والعفو من الإسقاط .

* * *

ثالثًا : طلاقة الوجه :

وطلاقة الوجه هو إشراقه حين مقابلة الخلق، وضدُّ ذلك عبوس الوجه . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **لاتحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »(٢) . وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن البر فقال : **وجه طَلْق ولسان ليّن**.

وقد نظمه بعض الشعراء فقال :

بنيّ إن البرَّ شيءٌ هَيِّن وَجْهٌ طليقٌ ولسانٌ لين

فطلاقةُ الوجه تُدخل السرور على الناس وتجذبُ المودة والمحبة وتوجبُ انشراحَ الصّدر منك وممن يقابلك .

لكن إذا كنت عبوسًا ، فإن الناس ينفرون منك ، ولا ينشرحون بالجلوس إليك ، ولا بالتحدث معك، وربما تصاب بعُقد نفسية، وربما تصاب بالمرض الخطير وهو مايسمي بالضغط ، فإن انشراح الصّدر

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(١) أخرجه مسلم رقم (١٤٤) كتاب البر والصلة . والترمذي رقم (١٨٣٣) كتاب الأطعمة مطولاً .

وطلاقة الوجه من أنجع العقاقير المانعة من هذا الداء ولهذا ينصح الأطباء من ابتُلي بهذا الداء بأن يبتعد عما يثيره ويغضبه ، لأن ذلك يزيد في مرضه ، فانشراحُ الصدر وطلاقة الوجه تقضي على هذا المرض ، ويكون بذلك الإنسانُ محبوبًا إلى الخلق كريمًا عليهم .

هذه هي الأصول الثلاثةُ التي يدور عليها حسنُ الخلق في معاملة الخلق .

* * *

ومن علامات حسن الخلق مع الخلق : أن يكون الإنسان حسن المعاشرة مع من يعاشره من أصدقاء وأقارب ، لا يضيق بهم ولا يضيّق عليهم ، بل يدخل السرور على قلوبهم بقدر ما يمكنه في حدود شريعة الله ، وهذا القيد لابد منه ، لأن من الناس من لا يسرُّ إلا بمعصية الله والعياذ بالله ، فهذا لا ينبغي أن نوافقه عليه ، لكن إدخال السرور على من يعاشرك من أهل وأصدقاء وأقارب في حدود الشرع من حسن الخلق . ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : «**خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي**» (١) .

وكثير من الناس ـ مع الأسف الشديد ـ يحسن الخلق مع الناس ، ولكنه لايحسن الخُلُق مع أهله ، وهذا خطأ عظيم وقلبٌ للحقائق ، إذ كيف تحسن الخُلُق مع الأباعد وتسيء الخلق مع الأقارب ؟ قد يقول : لأن

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٨٩٥) كتاب المناقب . وابن حبّان في صحيحه رقم (١٣١٢) موارد . من حديث عائشة رضي الله عنها . وهو في صحيح الجامع رقم (٣٣١٤) . وأخرجه ابن ماجه رقم (١٩٧٧) كتاب النكاح ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

الأقارب أمونُ عليهم (١) . فنقول : هذا ليس بسبب يجعلك تسيء الخلق معهم ، فالأقارب أحقّ الناس بأن تحسن إليهم في الصحبة والعشرة ، ولهذا قال رجل : يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « **أمك** » قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » قال : ثم من ؟ قال : « **أمك** » . قال : ثم من ؟ قال : « **أبوك** » (٢) .

والأمر عند بعض الناس على العكس ، تجده يسيء العشرة مع أمه ، ويحسن العشرة مع زوجته ، فيكون مقدماً إحسان العشرة مع زوجته التي هي عنده بمنزلة الأسير ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم** » (٣) . يعني بمنزلة الأسرى والحاصل أن إحسان العشرة مع الأهل والأصحاب والأقارب كل ذلك من مكارم الأخلاق .

---

(١) أسون عليهم : أي أقوم بكفايتهم من النفقة وغيرها .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٧١) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١ ، ٢) كتاب البر والصلة . وابن ماجه رقم (٢٧٠٦) كتاب الوصايا .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٨٧) كتاب التفسير وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

كيفية اكتساب مكارم الأخلاق

ذكرنا أولاً أن حسن الخلق يكون بالطبع ويكون بالتطبع ، وأن حسن الخلق بالطبع أكمل من حسن الخلق بالتطبع ، وذكرنا لذلك دليلاً وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام للأشج بن عبد قيس : « **بل جبلك الله عليهما** » [(١)] .

وكذلك لأن حسن الخلق بالطبع لا يزول عن الإنسان ، لكن حسن الخلق بالتطبع قد يفوت الإنسان في مواطن كثيرة ، لأنه يحتاج إلى ممارسة وإلى معاناة وإلى رياضة ومجاهدة ، وإلى تذكر ذلك عند حدوث كل ما يثير الإنسان . ولهذا جاء رجل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رسول الله أوصني : قال : « **لاتغضب** » . فردد مرارا . قال : «**لا تغضب**» [(٢)] وقال النبي عليه الصلاة والسلام : «**ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » [(٣)] .

والصُّرعة : هو الذي يصرع الناس . كهُمَزَة ولُمَزَة . فهمزة : الذي

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٥٣٣٥) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٤/٢٠٦) . وأخرج مسلم شطره الأول رقم (٢٥ ، ٢٦) كتاب الإيمان . والترمذي رقم (٢٠١١) كتاب البر والصلة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦١١٦) كتاب الأدب . والترمذي رقم (٢٠٢٠) كتاب البر والصلة .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦١١٤) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٠٧) كتاب البر والصلة .

يهمز الناس . ولمزة : الذي يلمز الناس بالعيون .

فليس الشديد هو الذي يصرع الناس ويغلبهم ، « **إنما الشديد الذي يملك نفسه عن الغضب** » يتحكم فيها ويملكها في مواطن الغضب ، وملك الإنسان نفسه عند الغضب يعتبر من محاسن الأخلاق ، فإذا غضبت فلا تنفذ الغضب ، ولكن استعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا كنت قائمًا فاجلس ، وإذا كنت جالسًا فاضطجع ، وإذا ازداد بك الغضب فتوضأ حتى يزول عنك .

ويستطيع الإنسان اكتساب مكارم الأخلاق وذلك عن طريق الممارسة والمجاهدة والتمرين ، فيكون الإنسان حسن الخلق بأمور منها :

أولاً : أن ينظر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ، ينظر النصوص الدالة على مدح ذلك الخلق العظيم الذي يريد أن يتخلق به . والمؤمن إذا رأى النصوص تمدح شيئاً من الأخلاق أو الأفعال ، فإنه سوف يقوم به [(١)] .

والنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى ذلك في قوله : « **مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك : إما أن**

---

(١) فالتزكية لاتكون إلا عن طريق الرسل كما قال ابن القيم : « وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد ، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل ، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه . وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! فالرسل أطباء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم ، وبمحض الانقياد والتسليم لهم والله المستعان . أ. هـ (مدارج السالكين) [٢/ ٣٠٠] .

يبيعك ، وإما أن يُحْذيك [١] ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة . ومثل الجليس السوء كنافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة » [٢] .

ثانياً : أن يصاحب من عرفوا بحسن الأخلاق والبعد عن مساوىء الأخلاق وسفساف الأعمال ، حتى يجعل من هذه الصحبة مدرسة يستعينُ بها على حسن الخلق ، فإن النبيَّ ﷺ قال : « **الرجُلُ على دينِ خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالِل » [٣]** .

ثالثاً : أن يتأمل الإنسان ماذا يترتب على سوء خلقه : فسيِّيء الخلق ممقوت ، سيِّيء الخلق مهجور ، سيِّيء الخلق مذكور بالذكر القبيح ، فإذا علم الإنسان أن سوء الخلق يفضي به إلى هذا فإنه يبتعد عنه .

رابعاً : أن يستحضر الإنسان دائماً صورة خُلُق رسول الله ﷺ وكيف أنه كان يتواضع للخلق ، ويحلم عليهم ، ويعفو عنهم ، ويصبر على

---

(١) يُحْذيك أي يعطيك بدون بيع .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢١٠١) كتاب البيوع . ورقم (٥٥٣٤) كتاب الذبائح . وأخرجه مسلم رقم (١٤٦) كتاب البر والصلة . قال النووي : وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير ، والمروءة ومكارم الأخلاق ، والورع والعلم والأدب ، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس ، أو يكثر فجره ، وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة . أ. هـ انظر مسلم بشرح النووي (١٦/ ٣٩٤) .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٧٨) كتاب الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأبو داود رقم (٤٨٣٣) كتاب الأدب . وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٣ ، ٣٣٤) وحسنه الألباني وهو في صحيح الجامع الصغير رقم (٣٥٤٥) وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٩٢٧) .

أذاهم ، فإذا استحضر الإنسان أخلاق النبي ﷺ ، وأنه خير البشر وأفضل من عبد الله تعالى ، هانت على الإنسان نفسه ، وانكسرت صولة الكبر فيها ، فكان ذلك داعيًا إلى حسن الخلق .

صور من مكارم الأخلاق

ومن مكارم الأخلاق : أن تصل من قطعك : من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك ، إذا قطعوك ؛ فصلهم ولا تقل : من وصلني وصلته ! فإن هذا ليس بصلة ؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل من إذا قُطعت رحمه؛ وصلها** » (١) ؛ فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها .

وسأل النبي ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ! إن لي أقارب ؛ أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ! فقال النبي ﷺ : « **إن كنت كما قلت ؛ فكأنما تسفهم الملَّ ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلك** » (٢) .

وقوله : « **تسفهم الملّ** » ؛ أي كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم .

وإذا كان وصل من قطعك يعدُّ من مكارم الأخلاق فكذلك وصل من وصلك هو أيضًا من هذا الباب ؛ لأن من وصلك وهو قريب ؛ صار له حقان : حق القرابة ، وحق المكافأة ؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩١) كتاب الأدب .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٢) كتاب البر والصلة .

« **من صنع إليكم معروفًا ؛ فكافئوه** »[١] .

وكذلك عليك أن تعطي من حرمك : أي من منعك ، ولا تقل : منعني ؛ فلا أعطيه .

وتعفو عمن ظلمك ؛ أي : من انتقصك حقك : إما بالعدوان ، وإما بعدم القيام بالواجب .

والظلم يدور على أمرين : اعتداء وجحود : إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض ، إما أن يجحدك فيمنعك حقك .

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه . ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام ، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام لأمور :

أولاً : رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته ؛ فإن من عفا وأصلح ؛ فأجره على الله .

ثانياً : لإصلاح الود بينك وبين صاحبك ؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة ؛ استمرت الإساءة بينكما ، وإذا قابلت إساءته بإحسان ؛ عاد إلى الإحسان إليك وخجل ..

قال الله تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[٢] .

فالعفو عند المقدرة من مكارم الأخلاق ، لكن بشرط أن يكون العفو

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (١٦٧٢) كتاب الزكاة . ورقم (٥١٠٩) كتاب الأدب . والنسائي رقم (٢٥٦٦) كتاب الزكاة باب (٧٢) وهو في صحيح الجامع رقم (٦٠٢١) .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .

إصلاحاً ؛ فإن تضمن العفو إساءة ؛ فإنه لا يندب إلى ذلك ؛ لأن ا
اشترط ، فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ (١) ؛ أي : كان في عفوه إصلاح
أما من كان في عفوه إساءة أو كان سبباً للإساءة ؛ فهنا نقول : لا تعف
مثل أن يعفو عن مجرم ، ويكون عفوه هذا سبباً لاستمرار هذا المجرم
إجرامه ؛ فترك العفو هنا أفضل وربما يجب ترك العفو حينئذ .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : بر الوالدين ، وذلك لعظم حقه
. فلم يجعل الله لأحد حقاً يلي حقه وحق رسوله ﷺ إلا للوالدين
فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٢) .

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله ؛ لأنه لا تتحق العبادة حـ
يقوم العبد بحق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ بمحبته واتباع سبيله
ولهذا كان داخلاً في قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وكيـ
يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ ؟!

وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول ﷺ ؛ فقد أدى حقه .

ثم يلي ذلك حق الوالدين ؛ فالوالدان تعبا على الولد ، ولا سيـ
الأم ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُر
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (٣) ، وفي آية أخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُ

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ١٥ .

وهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ (١) ، فالأمُّ تتعب في الحمل، وعند الوضع ، وبعد الوضع ، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له ، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر ، حتى من الأب .

قال رجل : يارسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « **أمك** ». قال : ثم من ؟ قال: « **أمك** ». قال: ثم من؟ قال: « **أمك** » . ثم قال في الرابعة : « **ثم أبوك** » (٢) .

والأب أيضًا يتعب على أولاده ، ويضجر بضجرهم ، ويفرح لفرحهم ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم ، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده .

فكل من الأم والأب له حق ؛ ومهما عملت من العمل فلن تقضي حقهما ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾(٣) ؛ فحقهم سابق ؛ حيث ربياك صغيراً حين كنت لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً ؛ فواجبها البر .

❊ والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس ، ولهذا قدمه النبي ﷺ على الجهاد سبيل الله ؛ كما في حديث ابن مسعود ؛ قال : قلت : يا رسول الله ! أي العمل أحب إلى الله؟ قال: « **الصلاة على وقتها** » . وقلت : ثم أي ؟ قال : « **بر الوالدين** » . قلت : ثم أي ؟

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٤ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٧١) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١ ، ٢) كتاب البر والصلة .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٢٤ .

قال : « **الجهاد في سبيل الله** »[١] .

* والوالدان هما الأب والأم ، أما الجد والجدة ؛ فلهما بر ، لكنه لا يساوي بر الأم والأب ؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة ؛ فكان برهما واجباً من باب الصلة، أما البر ؛ فإنه للأم والأب .

* **لكن ؛ ما معنى البر ؟**

البر : إيصال الخير بقدر ما تستطيع ، وكف الشر .

إيصال الخير بالمال ، وإيصال الخير بالخدمة ، وإيصال الخير بإدخال السرور عليهما ؛ من طلاقة الوجه ، وحسن المقال والفعال ، وبكل مافيه راحتهما .

* ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد إذا لم يحصل عليه ضرر ، فإن كان عليه ضرر ؛ لم يجب عليه خدمتهما ، اللهم إلا عند الضرورة .

ولهذا نقول : إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه ، إما ما فيه ضرر عليه ، سواء كان ضرراً دينياً ؛ كان يأمراه بترك واجب أو فعل محرم ؛ فإنه لا طاعة لهما في ذلك ، أو كان ضرراً بدنياً ؛ فلا يجب عليه طاعتهما . أما المال ؛ فيجب عليه أن يبرهما ببذله ، ولو كثر ، إذا لم يكن عليه ضرر ، ولم تتعلق به حاجته ، والأب خاصة له أن

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة . ومسلم رقم (١٣٩) كتاب الإيمان .

يأخذ من مال ولده ما شاء ، ما لم يضر .

* وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم ؛ وجدنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه ، بل هو عاق ؛ تجده يحسن إلى أصحابه ، ولا يمل الجلوس معهم ، لكن لو يجلس إلى أبيه أو أمه ساعة من نهار ؛ لوجدته متململاً ، كأنما هو على الجمر ؛ فهذا ليس ببارّ ، بل البارُّ من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه ، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل مايستطيع .

وكما قالت العامة : « البر أسْلاف » ؛ فإن البر مع كونه يحصل به البارُّ على ثواب عظيم في الآخرة ؛ فإنه يجازى به في الدنيا . فالبر والعقوق كما يقول العوام : « أسلاف » ، أقرض ؛ تستوف ، إن قدمت البر لأبيك وأمك ؛ برك أولادك ، وإن قدمت العقوق ؛ عقك أولادك .

وهناك حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده ، وكذلك في العقوق هناك حكايات تدل على أن الإنسان إذا عقَّ أباه وأمه عقه أولاده .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : صلة الأرحام .

وهناك فرق بين الوالدين والأقارب الآخرين ، فالأقارب لهم الصلة، والوالدان لهما البر . والبر أعلى من الصلة ؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان ، لكن الصلة ألا يقطع ، ولهذا يقال في تارك البر : إنه عاق ، ويقال فيمن لم يصل : إنه قاطع !

فصلة الأرحام واجبة ، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة . قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « **لا يدخل الجنة قاطع** » (٢) ؛ أي : قاطع رحم .

والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة .

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ ... بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ

وعلى هذا ؛ يرجع إلي العرف فيها ؛ فما سماه الناس صلة ؛ فهو صلة ، وما سموه قطيعة ؛ فهو قطيعة ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم .

ـ إذا كان الناس في حالة فقر ، وأنت غني ، وأقاربك فقراء ؛ فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك .

ـ وإذا كان الناس أغنياء ، وكلهم في خير ؛ فيمكن أن يكون الذهاب إليهم في الصباح أو المساء مما يعد صلة .

* وفي زماننا هذا الصلة بين الناس قليلة ، وذلك لانشغال الناس في حوائجهم ، وانشغال بعضهم عن بعض ، والصلة التامة أن تبحث عن

---

(١) سورة محمد ، الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٨٤) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٩) كتاب البر والصلة .

حالهم ، وكيف أولادهم ، وترى مشاكلهم ، ولكن هذه الأمور مع الأسف مفقودة ؛ كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : حسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل ، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام :

قال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ (١)، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد .

وقال النبي ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليكرم جاره** » (٢) .

وقال ﷺ : « **إذا طبخت مرقة ؛ فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك** » (٣) .

وقال ﷺ : « **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » (٤).

وقال ﷺ : « **والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ؛ قيل : من**

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٩) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٧٧) كتاب الإيمان . ورقم (١٤) كتاب اللقطة .

(٣) أخرجه مسلم رقم (١٤٢) كتاب البر والصلة .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٤ ، ٦٠١٥) كتاب الأدب . ومسلم رقم (١٤٠ ، ١٤١) كتاب البر والصلة .

يا رسول الله؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه»[١]، أي شرورة وغوائله .

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه .

* والجار إن كان مسلماً قريباً ؛ كان له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان قريباً جاراً ؛ فله حقان : حق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان مسلماً غير قريب وهو جار ؛ فله حقان : حق الإسلام ، وحق الجوار .

وإن كان جاراً كافراً ؛ فله حق واحد ، وهو حق الجوار .

* **فمن مكارم الأخلاق حسن الجوار مطلقاً** ، أيّاً كان الجار ، ومن كان أقرب ؛ فهو أولى .

* ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره ؛ فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه .

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله في آخر باب الصلح في الفقه شيئاً من أحكام الجوار ؛ فليرجع إليه .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٦) كتاب الأدب .

* **واليتامى** : جمع يتيم ، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه .

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، وكذلك النبي ﷺ حث عليه في عدة أحاديث (١) .

ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه ؛ فهو في حاجة إلى العناية والرفق .

والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال .

* **والمساكين** : هم الفقراء ، وهو هنا شامل للمسكين والفقير .

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعددة من القرآن ، وجعل لهم حقوقاً خاصة في الفيء وغيره .

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم ، فكان من محاسن الإسلام ومكارم الأخلاق أن نحسن إليهم جبراً لما حصل لهم من النقص والانكسار .

والإحسان إلى المساكين يكون بحسب الحال : فإذا كان محتاجاً إلي طعام ؛ فالإحسان إليه بأن تطعمه ، وإذا كان محتاجاً إلى كسوة ؛ فالإحسان إليه بأن تكسوه ، ويكون أيضًا بأن توليه اعتباراً ، فإذا دخل المجلس ؛ ترحب به ، وتقدمه لأجل أن ترفع من معنويته .

فمن أجل هذا النقص الذي قدره الله عز وجل عليه بحكمته أمرنا عز

(١) منها قوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . أخرجه البخاري رقم (٦٠٠٥) كتاب الزدب من حديث سهل بن سعد . وأخرجه مسلم بنحوه رقم (٤٢) كتاب الزهد من حديث أبي هريرة .

وجل أن نحسن إليهم .

* **كذلك ابن السبيل ، وهو المسافر** ، وهو هنا المسافر الذي انقطع به السفر ، أو لم ينقطع ؛ بخلاف الزكاة ؛ لأن المسافر غريب ، والغريب مستوحش ، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه ؛ فإن هذا مما يأمر به الشرع .

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفاً ؛ فمن مكارم الأخلاق أن تكرم ضيافته .

لكن قال بعض العلماء : إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا في القرى دون الأمصار ! ونحن نقول : بل هي واجبة في القرى والأمصار ؛ إلا أن يكون هناك سبب ؛ كضيق البيت مثلاً ، أو أسباب أخرى تمنع أن تضيف هذا الرجل ، لكن على كل حال ينبغي إذا تعذر أن تحسن الرد .

* * *

*** ومن مكارم الأخلاق أيضًا : « الرفق بالمملوك والخادم »**

* والمملوك يشمل المملوك الآدمي والبهيم :

ـ فالرفق بالمملوك الآدمي يكون بأن تطعمه إذا طعمت ، وتكسوه إذا اكتسيت ، ولا تكلفه مالا يطيق .

ـ والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى ؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه ؛ ففي الشتاء تجعل في الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد ، وفى الصيف في الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر ، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي ، وإذا كانت مما تحمل ؛ فلا تحمل مالا تطيق .

وهذا يدل على كمال الشرع ، وأنه لم ينس حتى البهائم ، بل جعل لها حقّاً .

* * *

ومن مكارم الأخلاق أيضاً : ترك الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق .

* فالفخر بالقول والخيلاء بالفعل ، والبغي العدوان والاستطالة : الترفع والاستعلاء .

فالإنسان منهيٌّ أن يتفاخر على غيره بقوله ، فيقول : أنا العالم ! أنا الغني ! أنا الشجاع !

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول : ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق .

والخيلاء تكون بالأفعال ؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى ، كأنه وصل إلى السماء ، والله عز وجل وبخ من هذا فعله ، فقال : ﴿ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ (١) .

فالواجب أن تكون متواضعًا في القول وفي الفعل ، لا تثن على نفسك بصفاتك الحميدة ؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك ؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه : « لو أعلم أحدًا هو أعلم مني بكتاب

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٧ .

الله تبغله الإبل ؛ لركبت إليه »[١] ؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين :

الأول : حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى .

والثاني : دعوتهم للتلقي عنه .

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا ، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها ، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس ؛ سقط من أعينهم ؛ فاحذر هذا الأمر .

* **والبغي** : العدوان على الغير ، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول ﷺ في قوله : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام** »[٢] .

فالبغي على الخلق يكون في الأموال والدماء والأعراض .

* **ففي الأموال** ؛ مثل أن يدعي ما ليس له ، أو ينكر ما كان عليه ، أو يأخذ ما ليس له ؛ فهذا بغي في الأموال .

* **وفي الدماء** : القتل فما دونه ؛ كأن يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل .

* **وفي الأعراض** : يحتمل أن يراد بالأعراض : السمعة ، فيعتدي

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢) كتاب فضائل القرآن . ومسلم رقم (١١٥) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٧٣٩) كتاب الحج من حديث ابن عباس . والبخاري رقم (١٧٤١) كتاب الحج . ومسلم رقم (٢٩ ، ٣١) كتاب الحج من حديث أبي بكرة . ومسلم رقم (١٤٧) كتاب الحج من حديث جابر .

عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته ، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه ، والكل محرم ؛ فمن مكارم الأخلاق ترك الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض .

* وكذلك **الاستطالة على الخلق** ؛ يعني : الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق .

فالاستعلاء على الخلق منهيٌّ عنه ، سواء كان بحق أو بغير حق ، والاستعلاء هو أن يترفع الإنسان على غيره .

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أنه إذا منَّ عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك ؛ فإنه ينبغي أن تزداد تواضعًا ، حتى تضيف إلى الحسن حسنى ؛ لأن الذي يتواضع في موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة . وقد قال النبي ﷺ : « **... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله** » (١) .

وقال النبي ﷺ : « **إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ** » (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٦٩) كتاب البر والصلة .

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٣٥٨) : قوله ﷺ : « وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله » : فيه وجهان : أحدهما : يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس . والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا . . . وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة . والله أعلم .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٦٤) كتاب الجنة ونعيمها .

أخلاق غير المسلمين

يورد كثير من الناس أن أهل الغرب أحسن أخلاقًا منَّا في تعاملهم وبيعهم وشرائهم ، بينما تجد الغش والكذب وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب منتشرًا بين صفوفنا نحن المسلمين .

وللرد على هذه الفرية نقول : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **البينة على المدعي** »[1] . وما كان مشهورًا بين الناس من أن الغرب عندهم حسن خلق في المعاملة فهذا ليس بصحيح ، فإن عندهم من سوء المعاملة ما يعرفه من ذهب إليهم ونظر إليهم بعين العدل والإنصاف ، دون من نظر إليهم بعين الإجلال والإكبار . فقد قال الشاعر :

وعَيْنُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ

كما أن عين السُّخْطِ تبدي المساويا

ولقد حدثني كثير من الشباب الثقات الذي ذهبوا إلى الغرب عن أفعال من أسوأ الأخلاق ، لكنهم هم إذا نصحُوا فيما ينصحون فيه من البيع والشراء ، فليس لأنهم ذَوو أخلاق ، وإنما لأنهم عبّادُ مادة ، والإنسان كلما كان أنصح في معاملة من هذه المعاملات الدنيوية ، كان

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٣٤١) كتاب الأحكام . وقال : هذا حديث في إسناده مقال . وصححه الألباني ، وهو في صحيح الجامع رقم (٢٨٩٧) . وقال الترمذي أيضًا : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ، وغيرهم أن البينة على المدعى ، واليمين على المدَّعى عليه . أهـ . سنن الترمذي (٣/ ٦٧٨) .

الناس إليه أقبل ، وإلى شراء سلعته وترويجها أسرع .

فهم لا يفعلون ذلك لأنهم كاملو الأخلاق ، لكن لأنهم أصحاب مادة ، ويرون من أكبر الدعايات لتنمية أموالهم أن يحسنوا المعاملة ، من أجل أن يجذبوا إليهم الأعداد الكبيرة . وإلا فهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ (١) . ولا أظنُّ أحدًا أصدق وصفًا من وصف الله عز وجل للكافرين ، فإنهم شرُّ البرية ، وكيف يرجى خيرٌ مقصود لذاته من قوم وصفهم الله بأنهم شرُّ البرية ، لا أعتقد أن ذلك يكون أبدًا ، لكن ما يوجد فيهم من الصدق والبيان والنصح في بعض المعاملات ، إنما هو مقصود لغيره عندهم ، وهو الحصول على المادة والكسب ، وإلا فمن رأى ظلمهم وغُشمهم واستطالتهم على الخلق في مواطن كثيرة ، عرف مصداق قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم شر البرية** ﴾ .

وأما بالنسبة لما وقع من كثير من المسلمين ، من الغش والكذب والخيانة في المعاملات ، فإنه هؤلاء المسلمين نقصوا من إسلامهم وإيمانهم بقدر ما خالفوا الشريعة فيه من هذه المعاملات .

فلا يعني أن مخالفة بعض المسلمين وخروجهم عن إطار الشريعة في مثل هذه الأمور ، لا يعني ذلك النقص في الشريعة نفسها ، فالشريعة كاملة ، وهؤلاء الذين أساؤوا إلى شريعة الإسلام ، ثم إلى إخوانهم من المسلمين ، ثم إلى من يعاملونه من غير المسلمين ، هؤلاء إنما أساؤوا إلى

---

(١) سورة البينة ، الآية : ٦ .

أنفسهم فقط ، والعاقل لا يجعل إساءةَ العامل سوءًا في الشريعة التي ينتمي إليها هذا العامل .

ولذلك فإنني أرجو من جميع المسلمين أن تكون لديهم حملة قوية في محاربة هذه الأمور التي لا يقرها الإسلام ، من الكذب والخيانة والغش والخداع وما أشبه ذلك .

فلابد أن نبين للناس أن من كمال الدين كمال الخلق كما صحّ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » (١) .

وعلى هذا فكلٌّ من كان ناقص الخلق فهو ناقص الدين ، فكمال الدين بكمال الخلق (٢) ، ولذلك فإن تأثير كامل الخلق على غيره من جَلْبه إلى الإسلامَ وإلى الدين ، أكبر من تأثير ذي الديانة السيّئ الخلق ، فإذَا وفق من كان قويّاً في العبادة إلى كمال الخلق كان ذلك أحسن وأكمل .

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٦٨٢) كتاب السنة . والترمذي رقم (١١٦٢) كتاب الرضاع . وفيه زيادة : « وخياركم خياركم لنسائهم » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وهما في صحيح الجامع رقم (١٢٣٠ ، ١٢٣٢) .

(١) قال ابن القيم رحمه الله في « مدارج السالكين » : الدينُ كلُّه خُلُق ، فما زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين . أ. هـ. من المدراج (٢/ ٢٩٤) .

كمال خلق النبي ﷺ

من أحسن الخَلْق أخلاقاً ؟ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وفي الصحيح أن هشام بن حكيم سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « **كان خُلُقه القرآن . فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً** » (٢) !! فهو ﷺ أكمل الناس خلقًا في جميع محاسن الأخلاق وجميل الخصال والأفعال . والحوادث والوقائع التي وقعت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تدل على حسن خلقه . بل إنه ﷺ ، كان حسن الخلق حتى مع الأطفال : فكان يلاطفهم ويلاعبهم ، وكان يقول لأحد الأطفال : « **يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغيْر** »(٣) وأبو عمير كنية لطفل صغير وكان معه « نغير » وهو طائر صغير مثل العصفور ، هلك هذا النغير ، فحزن عليه الصبي واغتم ، فكان عليه الصلاة والسلام ، يلاطفه قائلاً : « **يا أبا عُمير ما فعل النغير** » .

وكذلك من حسن خلقه ﷺ ، ورحمته بالخلق أن أعرابياً جاء وبال في المسجد ، فزجره الناس ونهروه بشدة ، فنهاهم النبي عليه الصلاة

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٧٦) كتاب صلاة المسافرين . وأبو داود رقم (١٣٤٢) كتاب الصلاة . وابن ماجه مختصرًا رقم (٢٣٣٣) كتاب الأحكام . وأحمد في المسند (٦/ ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢١٦) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٠٣) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٣٠) كتاب الآداب .

والسلام ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ ، بذنوب من ماء فأريق على البول . ثم دعا الأعرابي فقال له : « **إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر ، إنما هي للصلاة وقراءة القرآن** » (١) . أو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام .

ووجه حسن الخلق في هذه القصة ظاهر ، فهو لم يوبخ هذا الأعرابي ولم يأمر بضربه ، بل إنه تركه حتى قضى بوله ، ثم أعلمه أن المساجد لاتصلح لما فعل إنما هي للصلاة والذكر وقراءة القرآن .

وكذلك من حسن خلقه ﷺ ، ورحمته بالمؤمنين ، أن رجلاً أتى إليه ﷺ ، وقال : يا رسول الله هلكتُ ! ! فقال له النبي ﷺ : « **وما أهلكك؟** » فقال الرجل : وقعت على امرأتي في رمضان ـ يعني جامعها في نهار رمضان ـ فقال له النبي ﷺ : « **فهل تجدُ ما تـعتِقُ رقبةً ؟** » قال : لا . قال : « **فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟** » قال : لا . قال : « **فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟** » قال : لا . ثم جلس . فأتي النبي ﷺ بعَرَق (٢) فيه تمر . فأعطاه إياه وقال له : « **تصدّق بهذا** » فقال الرجل : على أفقر منا ؟! فما بين لا بَتَيْها أحوج إليه منا . فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : « **اذهب فاطعمه أهلك** » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢١٩ ، ٢٢٠) كتاب الوضوء . ورقم (٦١٢٨) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠) كتاب الطهارة .

(٢) العَرَق : هو الزنبيل والقفة والمكتل ، وهو عند الفقهاء ما يسع خمسة عشر صاعًا ، وهي ستون مُدًا لستين مسكينًا ، لكل مسكينٍ مدّ . انظر مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٩٣٦) كتاب الصوم ورقم (٢٦٠٠) كتاب الهبة ، ورقم =

وحسن خلق النبي ﷺ في هذه القصة ظاهر بيّن ، فإنه لم ينهر هذا الرجل ، ولم يشتمه ولم يوبّخه ، لأنه جاء نادمًا تائبًا خائفًا ، فرأى النبي ﷺ ، بعلمه وحكمته أن هذا الرجل لا يستحق أن يوبّخ ، بل يبين له الحق الذي جاء من عند الله ، ويعامل بالرفق واللين ، وهذا من رحمته ﷺ ، التي مدحه الله تعالى بها في كتابه حيث قال : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم** ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (٢) .

وأما صفاته ﷺ فهو المقدَّم في كل صفة حميدة عُرفت شرعًا أو طبعًا .

❊ ❊ ❊

ففي الكرم : كان ﷺ أكرم الناس ، يعطي عطاءً لا يعطيه أحد من البشر ، جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم ! أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة (٣) .

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما : « **ما سئل رسول الله ﷺ**

= (٥٣٦٨) كتاب النفقات . ورقم (٦٠٨٧) كتاب الأدب . وأخرجه مسلم رقم (٨١١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧) كتاب الصيام .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

(٣) أخرجه مسلم رقم (٥٧ ، ٥٨) كتاب الفضائل .

قطُّ فقال : « لا » (١) .

ولما قَفَلَ رسول الله ﷺ من غزوة حنين تبعه الأعراب يسألونه ، فألجؤوه إلى شجرةٍ ، فَخَطفت رداءه ، وهو على راحلته ، فقال : « **ردوا علي ردائي أتخشون علي البخل ؟ فوالله لو كان لي عدد هذه العضاه** (٢) **نَعمًا ، لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا** » (٣) .

وكان ﷺ يؤثر على نفسه ، فيعطي العطاء ويمضي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار (٤) .

أهدت امرأة إلى النبي ﷺ شملة منسوجة ، فقالت : « يا رسول الله أكسوك هذه فأخذها النبي ﷺ ، محتاجاً إليها ، فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها ، فقال : « **نعم** » فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه ، فقالوا : ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه ، فقال : رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفَّنُ فيها » (٥) .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٦) كتاب الفضائل .

(٢) العضاه : الشجرة الغليظة الثابتة الأصل .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير . ورقم (٣١٤٨) كتاب فرض الخمس .

(٤) لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار » أخرجه البخاري رقم (٦٤٥٩) كتاب الرقاق . ومسلم رقم (٢٨) كتاب الزهد .

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٦) كتاب الأدب .

وكان كرمه ﷺ كرمًا في محله ، ينفق المال لله وبالله ؛ إما لفقير ، أو محتاج ، أو في سبيل الله ، أو تأليفًا على الإسلام ، أو تشريعًا للأمة .

* * *

وفي الشجاعة : كان ﷺ أشجع الناس ، وأمضاهم عزمًا وإقدامًا ، كان الناس يفرون وهو ثابت ، قال العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ : لما التقى المسلمون والكفار ـ يعني في حنين ـ وولى المسلمون مدبرين ، طفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفّها إرادة ألاّ تسرع ، وكان يقول حينئذ : « **أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبدالمطلب** »[(١)] .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ « **كُنَّا إذا احمرَّ البأسُ ، ولقي القومُ القومَ ، اتَّقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه** »[(٢)] .

وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت ، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ راجعاً ـ وقد سبقهم إلى الصوت ـ وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ، في عنقه السيف وهو يقول : « **لم تراعُوا**[(٣)] **لم تُرَاعُوا** » قال وجدناه

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٧٦) كتاب الجهاد والسير . وأخرجه البخاري بنحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه رقم (٢٨٦٤) كتاب الجهاد . ورقم (٤٣١٥ ، ٤٣١٧) كتاب المغازي .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٥٦) وبنحوه مسلم رقم (٧٩) كتاب الجهاد من حديث البراء رضي الله عنه .

(٣) قوله : لم تراعوا : أي لا تخافوا والعرب تتكلم بهذه الكلمة واضعه « لم » موضع «لا» .

بحرًا [١] ، أو إنه لبحر وكان فرسًا يُبطّأ » [٢] .

أما لينُه وحسن خلقه فقد كان ﷺ لطيفًا رحيمًا ، فلم يكن فاحشًا ولا متفحشًا [٣] ، ولا صخَّابًا في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [٤] ، قال أنس ـ رضي الله عنه ـ : « خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لي أفٍّ قطُّ ، ولا قال لي لشيء : لِمَ فعلتَ كذا ؟ وهَلاَّ فعلتَ كذا ؟ » [٥] .

---

(١) قوله : وجدناه بحرًا : أي وجدوا الفرس سريع الجري بعد أن كان يبطأ .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٩٠٨) كتاب الجهاد والسير . ورقم (٦٠٣٣) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٤٨) كتاب الفضائل .

قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٥ ، ٦٧ ، ٦٨) :

وفيه فوائد : منها بيان شجاعته ﷺ ، من شدة عجلته في الخروج إلى العدوّ قبل الناس كلّهم ، بحيث كشف الحال ، ورجع قبل وصول الناس . وفيه بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعًا بعد أن كان يبطأ ، وهو معنى قوله : وجدناه بحرًا : أي واسع الجري . أ . هـ .

(٣) لحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه . أخرجه البخاري رقم (٣٥٥٩) كتاب المناقب . ورقم (٦٠٢٩ ، ٦٠٣٥) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٦٨) كتاب الفضائل .

(٤) لحديث عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في الفرقان : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتُك المتوكّل ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا سخّابًا بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر . . . . » أخرجه البخاري رقم (٢١٢٥) كتاب البيوع . ورقم (٤٨٣٨) كتاب التفسير .

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٨) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٥١) كتاب الفضائل .

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويضعهم في حجره ، وربما بال الصبي في حجره فلا يعنف [١] .

وكان ﷺ يجيب دعوة الحر والعبد ، والغني والفقير ، ويعود المريض في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر [٢] ، وكان يسمع بكاء الصبي وهو يصلي بالناس فيسرع في الصلاة مخافة أن تُفتن أمه [٣] .

و « كان يصلي وهو حاملٌ أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ، ولأبي العاص بن الربيع ، فإذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها !! » [٤] .

قال أبو بريدة : كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين

---

(١) فقد أتت أم قيس بنت محصن بابن لها لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ فأجلسه ﷺ في حجره فبال على ثوبه ، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله ، أخرجه البخاري رقم (٢٢٣) كتاب الوضوء . ومسلم رقم (١٠٤) كتاب الطهارة .

(٢) وهذا كلّه من تواضعه ﷺ . قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/ ٣١٠) عن تواضع النبي ﷺ : « وكان النبي ﷺ يمرُّ على الصبيان فيسلّم عليهم ، وكانت الأمة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت ، وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاثه ، وكان ﷺ في بيته في خدمة أهله ، ولم يكن ينتقم لنفسه قط ، وكان ﷺ يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب الشاة لأهله ، ويعلف البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويجالس المساكين ، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويجيب دعوة من دعاة ولو إلى أيسر شيء . وكان ﷺ هيّن المؤونة ، ليّن الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بسّامًا ، متواضعًا من غير ذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم ، خافض الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم . أ. هـ .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠) كتاب الأذان . ومسلم رقم (١٩٢) كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥١٦) كتاب الصلاة . ورقم (٥٩٩٦) كتاب الأدب . ومسلم رقم (٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) كتاب المساجد .

ـ عليهما السلام ـ عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران [١] ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : « **صدق الله : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [٢] ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما** » [٣] .

قال الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ : سألت أبي عن سير النبي ﷺ في جلسائه ، فقال : « كان النبي ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخاب ، ولا عياب، ولا مشاح [٤]، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيسُ منه راجيه ، ولا يُخَيِّبُ فيه ، قدْ ترك نفسه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذمُّ أحدًا ولا يعيبُهُ ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلَّم إلا فيما رَجَا ثوابه ، وإذا تكلَّم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطَّيْرُ ، فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، مَنْ تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثُهُم عنده حديث أولهم ، يضحكُ مما يضحكون منه ، ويتعجبُ مما يتعجبون منه ، ويصبرُ للغريب على الجفوة [٥] ، في منطقه ومسألته ، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم [٦] ، ويقول : إذا رأيتم

---

(١) يعثران : من العثرة أي يمشيان مشي صغير يميل في مشيه .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٨ .

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٧٤) كتاب المناقب . وقال : حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد . وأخرجه النسائي رقم (١٤١٢) كتاب الجمعة . وأبو داود رقم (١١٠٩) كتاب الصلاة .

(٤) مشاحّ : مفاعلة من الشحّ وهو شدة البخل . (٥) الجفوة : الغلظة وسوء الخلق .

(٦) أي كان الصحابة يتمنون أن يأتي هؤلاء الأعراب ليستفيدوا من أسئلتهم لرسول الله ﷺ وهذا يدل على شدة توقير الصحابة لرسول الله ﷺ وهيبتهم له .

طالب حاجة يطلبها فأرفدوه [١] ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحدٍ حديثَهُ حتى يجوز ، فيقطعه بنهي أو قيام » [٢] .

* * *

وفي الزهد والتقلل من الدنيا : كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة ، خيره الله تعالى بين أن يكون ملكًا نبياً أو عبدًا نبياً ، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا ، وخيّره بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يعيش وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . قال أنس : دخلت على النبي ﷺ وهو على سرير مرمل بالشريط وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر ، فانحرف رسول الله ﷺ فلم يَرَ عمر بين جَنْبَيه وبين الشريط ثوبًا ، وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ فبكى عمر ، فَقال له النبي ﷺ : « **ما يبكيك يا عمر** » ؟ قال : والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله - عز وجل - من كسرى وقيصر ، وهما يعبثان في الدنيا فيما يعبثان فيه ، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى ! فقال النبي ﷺ : « **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة** » ؟ **قال عمر : بلى ، قال:« فإنه كذاك »** [٣] .

---

(١) فأرفدوه : أي فأعينوه على بلوغ حاجته .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل رقم (٣٥٢) وفي إسناده أبو عبدالله التميمي من ولد أبي هالة مجهول كما قال الحافظ . وفيه جميع بن عمير بن عبدالرحمن العجلي متهم . قال الحافظ في التقريب ؟ رافضي ضعيف » والرواي عن الحسن بن علي لايعرف . انظر الشمائل المحمدية للترمذي بتحقيق : سيد بن عباس الجليمي ص (٣٤، ٣٥) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٩) . وابن حبان في صحيحه رقم (٦٣٦٢) كتاب =

هذه دررٌ من أخلاق النبي ﷺ ، فاتخذوها نبراسًا لكم تأتمون به ، وتأخذون بهديه وتسيرون على منهاجه فتهتدوا ، فإن الله جبله على مكارم الأخلاق ، وأمرنا بالاقتداء به ، قال الله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[1] .

رزقنا الله وإياكم محبة هذا النبي ﷺ ووفقنا إلى اتباع سنته وهديه حتى يأتينا اليقين .

﴿ تمت ﴾

= التاريخ . وأبو يعلى في مسنده رقم (٢٧٨٣) وذكره الحافظ الهيثمي في : مجمع الزوائد (١٠/٣٢٦) وقال : رجاله رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

فهرس المحتوى

الموضوع	الصفحة